حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 في عيون رحّالة محلي وقنصل أجنبي

بلعمري فاتح جامعة المسيلة

الملخص:

يتناول هذا المقال حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 من خلال كتابات رحّالة محلي، وهو أحد شيوخ الزوايا ويدعى عبد الرحمان بن ادريس الأكبر، القنصل الامريكي في الجزائر، وهما شاهدا عيان على الحملة. ولطالما اتهم الغربيون الكتاب المحليين بعدم الموضوعية ونقص الدقة في رواية الأحداث، بيد أن ما كتبه الرحالة المحلي يثبت عكس ذلك تماما. إذ قدم هذا الأخير رواية لأحداث الحملة أكثر دقة وتفصيلا، وتتجاوز بكثير من حيث موضوعيتها وحيادية كاتبها رواية القنصل الأمريكي وليام شالر.

Résumé :

Ce article parle d'une invasion de Lord Exmouth sur la ville d'Alger en 1816 à travers les écrits de voyageurs local qui était un savant et du « cheikh » de la Zaouïa : ABD-EL-RAHMANE BEN IDRISS-EL AKBAR et un consul étranger, il représente L'U.S.A en Algérie comme deux témoins oculaires sur cet évènement.

Les occidentaux avaient suffisamment accusé nos écrivains et historiens du non objectivité et de la non netteté de leurs écrits. Mais ce qu'avait affirmé ce voyageur indigène était le contraire.

Il avait dépassé les explications du consul américain WILLIAM SHALLER et ceci à travers les arguments qu'il a présenté.

Abstract:

The campaign of Lord Exmouth on the city of Algiers in 1816 – according to local travelers and a foreign consul - comparative study-

This topic told about Lord Exmouth invasion on the city of Algiers in 1816 through local traveler's writings, who was a scientist and Abderrahmane Ben Idriss El Akbar "sheikh" of Zaouia and by a foreign consul, who represents the USA in Algeria .These two persons were two eyewitnesses to this event. Westerners had enough accused our writers and historians about non objectivity and non sharpness of their writings. But what was said by this indigenous traveler was the opposite. He had overtaken the explanations of the American consul "William Shaller" through his different arguments.

مقدمة:

كثيرة هي الحملات الأوروبية التي تعرضت لها مدينة الجزائر أثناء العهد العثماني (1519-1830)(1)، ولهذا الأمر مبررات عدّة، في مقدمتها سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط، خصوصا حوضه الغربي بفضل رجال بحريتها حينذاك، وفرضها العديد من الشروط والقوانين والتي بموجبها يتم المرور في هذه الرقعة البحرية بسلامة أو التعرض للأسر والحجز لكل من لا يراعي تلك البنود.

وبقدر ما شنت الدول الأوربية هجمات فردية أو جماعية على دار الجهاد(2)، كانت هذه الأخيرة في نظرهم مدينة الرعب وعش العفاريت(3)، بقدر ما دافعت المحروسة(4)، عن نفسها طيلة ثلاثة قرون وأزيد.

ولعلّ من أهم هذه الحملات الأوربية على "مدينة الجزائر"، حملة اللورد إكسموث(5) (LORD EXMOUTH) في نهاية أوت سنة 1816م، والتي هي محور هذا الموضوع. فمن محاسن الصدف التاريخية أن تزامنت هذه الحملة مع وجود شخصين مهمين في مدينة الجزائر، قدما وصفا لهذه الحملة، إنهما رحّالة محلي (أي جزائري)، وآخر رجل دبلوماسي أجنبي، وكل واحد منهما دوّن أخبار هذه الحملة من عدة زوايا. وهنا تكمن الإشكالية، فمن يكون هذان الشخصان؟ اللذان حضرا وشاهدا حملة اللورد إكسموث وكتبا عنها؟وما مدى صدق كل واحد منهما في سرد الحقائق ونقل الأخبار؟ فأين اختلفا وأين اتفقا في ذكر أنباء الحملة ؟وكيف كان سيرها ونتائجها؟ وما هي العوامل والأسباب التي تحكمت فيهما وفي إبداء آرائهما؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه، حتى نستطيع الوصول إلى التصور الحقيقي للحدث من حيث أسبابه، سيره ونتائجه.

وفي هذا المقام نحمد الله تعالى أن وجدنا من أسلافنا من يسّر الله له طريق الكتابة والتدوين حتى نقف على نتائج المقارنة بما كتبوه هم مع ما كتبه الغير، وأملنا في ذلك خدمة الحقيقة التاريخية لا غير.

I- التعريف بالشخصين "الرحّالة المحلي والقنصل الأجنبي":

أ- **الرحّالة المحلي**: عبد الرحمن بن إدريس بن عمر الأكبر التنلاني التواتي:

هو عبد الرحمن بن إدريس بن عمر الأكبر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني ينتهي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وكنيته أبو زيد، كان عالما ماهرا في أصول الفقه والتفسير وكان حافظا للمسائل، ولد بتوات(6) 1181هـ، وتتلمذ على يد شيوخ فطاحل منهم: محمد بن عبد الرحمن بن عمر، محمد بن أحميد الزجلاوي وعبد القادر بن شقرون.(7)

لم يكتف "عبد الرحمن بن إدريس" بالعلم المقدم له بتوات فرحل إلى فاس، وترك مجموعة من الفتوى، ومن أهم مؤلفاته: الرحلة أي رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي الجزائري إلى الجزائر العاصمة. لقد كان عبد الرحمن كاتبا ومدرّسا تخرج على يديه مجموعة من العلماء، سواء أتعلق الأمر بمنطقة تمنطيت، جرارة أو تيديكلت....أو غيرها من مناطق ولاية أدرار حاليا، كما كان له تأثير خارج هذه المنطقة وخاصة فيما كان يعرف بالسودان الغربي، أو غرب إفريقيا حاليا.(8)

تعتبر رحلة عبد الرحمن بن إدريس وثيقة ذات درجة كبيرة من الأهمية، ليس فقط في سرده حادثة حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 م، بل تتعدى هذا إلى ذكر بعض الحقائق عن المدن والقرى التي مر بها هذا الرحالة منذ انطلاقه في رحلته من قصر تنلان بأدرار إلى غاية وصوله إلى مدينة الجزائر العاصمة وهي: (قصر ملوكة، أدرار، تيميمون، المنيعة، متليلي، وادي ميزاب (مليكة)، الأغواط، الجلفة، المدية، والجزائر العاصمة)(9).

لقد توفي "عبد الرحمن بن إدريس" في جمادى الثانية من عام 1233هـ، الموافق لسنة 1817 بمدينة سوى(10)، وهو في طريق العودة من الحرمين الشريفين(11)، فرحمه الله تعالى على هذا العالم الجليل والرحالة النبيل الذي ترك لنا ما دّونه يراعه عن حملة اللورد إكسموث. ولا يفوتني في هذا المقام أن أقر باتهام المؤرخين الغربيين في كثير من الأحيان لكتابنا المحليين ومؤرخينا بعدم الدقة والموضوعية في نقل الأخبار و

المبالغة في العديد من الأوقات، فهل هذه حقيقة أم بهتان؟ هذا ما أودّ أن أعرف خباياه واقف على أصله بمقارنة نص "عبد الرحمن بن إدريس "بما كتب وليم شالر" القنصل الأجنبي. فمن يكون هذا الأخير؟

ب- القنصل الأجنبي: وليام شالر: "WILLIAM SHALLER"

لقد كان "وليام شالر" قنصلا للولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر ما بين سنوات 1816-1824م وألّف عن عمله الدبلوماسي هذا كتابا، هو بمثابة تقرير شاهد عيان على هجوم إكسموث ويوميات قنصلية احتفظ بها(12)، وقد اقترح في كتابه: مختصر الجزائر "Sketches of Algiers" المطبوع عام 1826م في بوسطن استعمار الجزائر من طرف أوروبا، وبالتحديد بريطانيا حيث قال: »...إن بريطانيا يجب أن تعتزم على استعمار واحتلال هذا القسم من إفريقيا... «، وأوضح بأن أية مصاريف ستكلفها الحملة على الجزائر ستعوضها الخزينة الجزائرية، والتي قال بأنها تحتوي على مبلغ خمسين مليون دولار.(13)

ومما زاد من خطورة الأمر وأهميته، أن كتاب شالر ترجم في الحين إلى الفرنسية بعنوان هو: "Aperçu Historique sur l'état d'Alger"، ثم وضع في متناول وزارة الحربية الفرنسية، وبعد عام واحد فقط من صدوره، أعلنت فرنسا الحصار على الجزائر (1827)(14)، وإنّي أعتقد أن السلطات الفرنسية ترجمت ما جاء في كتاب شالر إلى عمل ميداني لا يقل أهمية عما كتبه آخرون من أبنائها وفي مقدمتهم الجاسوس بوتان(15)، من هذه الزاوية بالذات برهن "شالر" على أنه ملاحظ ومدوّن من الطراز العالي، ترك مادة تاريخية عالية القيمة عن الجزائر وعن حملة إكسموث البحرية عام 1816م(16).

وبما أن محور الحديث لهذا الموضوع هو "حملة اللورد إكسموث" كما دونها كل من "عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي ، ووليم شالر"، فإني اهتديت إلى وضع عناصر حتى تسهل عملية المقارنة من حيث ما ذكر الرحّالة المحلي بما كتب القنصل الأجنبي.

II- ذكر أخبار الحملة:

1- نزول سفن الإنجليز مع وصفها:

يذكر الرحالة المحلي "عبد الرحمن بن إدريس" نزول سفن الإنجليز بمياه الجزائر ويقول:"...يوم الأحد من شهر تاريخه عند العصر نزلت سفن عدو الله بدر لنكليز قرب الجزائر في البحر، وهي أربعون سفينة، وكل سفينة فيها مائة مدفع كبير، كل مدفع عمارته قنطار بارود، ونزلوا بعيدا عن المدينة، بحيث لا تصلهم الرمية من الجزائر، وأقاموا يومهم ذاك وغدهم كذلك"(17)، في حين القنصل الأمريكي لم يصف الأسطول وقوته بقدر ما ذكره دون تفاصل فقال: "...وصل الأسطول المشترك إلى الجزائر في صباح يوم 17 أغسطس (18).

وفي هذا الشأن بقدر ما اختلف الرحّالة المحلي في ذكر عدّة وعتاد الأسطول صمت القنصل الأمريكي عن هذا،ويمكننا أن نسجل دقة وموضوعية عبد الرحمن بن إدريس بما كتب، لأنه ذكر ذلك وقال: "...إن ما قلته بعضه مشاهدة، وبعضه بطريق الخبر من الثقاة..."(19)، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن القنصل الأمريكي قلل من شأن قوة هذه الحملة ، وعدم قدرتها على احتلال البلد فذكر: "...نوع القوة ليس من شأنه احتلال البلد..."(20)، ونجده متناقضا فيما بعد في شأن هذا الخبر.

لكن ما غاب عن الرحّالة المحلي بأن الأسطول كان مشتركا (بين الإنجليز والهولنديين) و يواصل ذكره القنصل الأمريكي، الذي حمّل مسؤولية نشر خبر الحملة للصحف الفرنسية، وهذا ما خالفه تماما الرحالة المحلي.

2- تبديل الأعلام السوداء بالبيضاء :

يقول عبد الرحمن بن إدريس الرحّالة المحلي في هذا الإطار: "...في صبيحة ضحى الثلاثاء، بدلوا جميع أعلام سفنهم، وجعلوها بعد أن كانت سوداء من الأعلام البيض، وهي أعلام صلح وعافية، بخلاف السود فهي أعلام الحرب..."(21)، غير أن القنصل شالر يفنّد هذه الحادثة ويذكر: "...إن الجزائريين يتظاهرون بالاعتقاد بأنهم

فوجئوا بالأسطول البريطاني الهولندي الذي كان يحمل عالم الصلح وغدر بهم..."(22)، ولعلّ الرحّالة المحلي في هذا الأمر كان صادقا، وهذا ما يدحض قول القنصل الأمريكي شالر لأن في مكاتبة إكسموث لداي الجزائر بعد انتهاء الحملة ما يثبت المكر والحيلة والخديعة حيث يقول: "...إن ملاقاة الأقران ومحاربتهم يكون بالقوة، ويكون بالشجاعة، ويكون بالمكيدة والحيلة، كما قيل الحرب خداع..."(23)، ولعل لإخفاء القنصل الأجنبي أمر خديعة تبديل الأعلام السوداء بالبيضاء اعترافا منه بقوة بني جلدته وإظهاره لحسن تنظيمهم وتفوقهم. والمتتبع لرسالة القائد إكسموث يقف على حقيقة استعمال الأسطول للحيل والخديعة حيث يعترف فيقول: "...وكما ينبغي لأمثالك أن يكون فيهم فضل جماعة، فكذلك ينبغي لهم أن يكونوا أهل مكر وخديعة، بل هذا أولى بهم وأكد في حقهم، ولو كنت متصفا بذلك ما توصلت أن لما فعلته بك وبمدينتك..."(24)، فمن الراجح أن قنصل أمريكا "وليام شالر" أخفى أمر تبديل الأعلام، وإلا كيف نفسر دخول الأسطول إلى ميناء الجزائر دون تعرضه لأذى؟.

3- ذكر مكاتبة الانجليز لداي الجزائر:

لقد قدّم الرحّالة المحلي كل الكتاب (الرسالة) الذي بعث به قائد الأسطول إلى داي الجزائر وفيه يقول: "...إعلم أني جئتك ناصحا ومصلحا...عندي ألفين قلاع جئتك منها بأربعين...وإن أبيت عن الصلح فنعم...وشاور على هذا نفسك وكبراء دولتك وأجّلتك ساعتين..."(25)، في حين لمح القنصل الأجنبي إلى هذه المكاتبة دون ذكر التفاصيل حيث قال: "...لما وصل الأميرال إكسموث إلى الجزائر، بعث بإنذار حكومته وطالب بردٍ في ظرف مدة محددة..."(26)، ولعله في هذه المسألة بالذات بانت دقة وموضوعية الرحّالة المحلي عن القنصل الأجنبي في ذكر كل تفاصيل الإنذار مع تحديد المدة الزمنية (ساعتين) والتي بقيت مبهمة عند القنصل الأجنبي.

4- بلوغ الكتاب صاحب الجزائر والسبب في عدم الجواب عليه:

يتحدث الرحّالة المحلي، رجل الدين وشيخ الزاوية عن هذا الأمر ويوضح السبب فيه فيقول: "...بلغ الكتاب صاحب الجزائر ووجد أكابر البلد ورؤساء الجند مفترقين في الجنانات لأن هذه الواقعة وقعت في فصل الخريف، وعادة البلد أن كل من عنده جنان

يكون سكناه فيه ذلك الوقت، فتعطل الجواب على النصراني..."(27)، وبالمقابل فإن القنصل شالر يتهم داي الجزائر بالتصرف غير السليم وبقلة التصميم والحزم، وأن هذا لا يليق بشخصه، كما أنه أعاد رسول الأميرال البريطاني دون جواب على إنذاره..."(28)، ودون تحيز ولا مبالغة فإن عبد الرحمن بن إدريس كان محقا في نقل الخبر وقدم مبرراته المنطقية والواقعية والتي أثبتتها المصادر والقرائن، غير أن القنصل الأمريكي يبدوا جليا أنه كان متحاملا ومتعصبا في حكمه أيضا، دون إدراكه لمبرّرات عودة رسول الأميرال إلى سيده دون جواب، ولعل لهذا الأمر قراءة أخرى وتساؤل جدير بالطرح، لماذا كان اختيار هذا الزمان بالذات من طرف بريطانيا للهجوم على مدينة الجزائر؟ لو لم تكن مطلعة على الأوضاع داخل المدينة وعلى الحياة الخاصة بأكابر جندها و رؤسائها أيام فصل الخريف، وهذا ما يفتح مجال شك المؤرخ والباحث معا؟.

5- دخول سفن العدو مرسى الجزائر وعدم تعرضها لأذى:

يتمادى القنصل الأجنبي في تحميل مسؤولية هزيمة الجزائريين إلى الباشا أولا حيث يقول: "...سمح الباشا أيضا في نفس الوقت للأسطول المشترك بأن يختار المواقع الملائمة لقصف المدينة...دون أن تخطر في باله مقاومة..."(29)، ثم يبدي رأيه في دفاع المدينة ويقول: "...لو سدّد الجزائريين نيران مدافعهم بإحكام في بداية المعركة إلى بوارج عدّوهم التي يستطيعون إصابتها بسهولة لكان من المرجّح أن تنزل بها خسائر كبيرة..."(30)، غير أن الحقيقة التاريخية عكس ذلك تماما، وهذا ما أدلى به الرحّالة المحلي " عبد الرحمن بن إدريس" الذي يقّر بدخول سفن الأسطول إلى مرسى الجزائر، والمدافعين هناك أرادوا أن يضربوه بالمدافع فحلف عليهم القايد سمي "علي" وهو قايد المرسى الذي قال: "...لا مدّ أحدكم يده للضرب إلاّ قطعتها له..."(31)، ويذكر بأن في الأمر وقوع رشوة من طرف الانجليز لهذا القايد بحوالي 50 قنطارا، أو "25" أو "15" دون أن يؤكدها.

إن المتتبع لنهاية قايد المرسى، كيف أزهقت روحه من طرف الباشا عمر (32)، يتأكد بأن هذا الأخير لم يكن على علم بدخول سفن الأسطول ميناء الجزائر، والشيء الوحيد الذي اتفقا عليه كل من الرحّالة المحلي والقنصل الأجنبي، هو أن الأسطول رسى

في الميناء دون أية مقاومة تذكر. غير أن الرأي الذي ينفرد به " عبد الرحمن بن إدريس" ولم يذكره "وليام شالر" هو ضرب الأسطول لمصدر الماء الذي يزود المدينة للشرب والتطهر بثلاثة مدافع وقعت على الساقية"(33)، وكان ذلك منذ بداية استقراره بالميناء، وفي هذا الأمر أعتقد أن الباحث والمؤرخ يستطيع أن يتخذ رأيه فيما كتب الرّحالة المحلي.

6- قصف المدينة:

لقد كان الرّحالة المحلي " عبد الرحمن بن إدريس" أكثر دقة من نظيره القنصل الأمريكي وليام شالر، لأنه حدّد بداية المعركة إلى غاية نهايتها، ثم ذكر المدة التي استغرقتها حيث يقول: "...ثم والى على المدينة بالبارود، وذلك بعد العصر، وقبل العصر، فلم يواليه عليها حتى قرب نصف الليل، ومدة ذلك على التحقيق إحدى عشر ساعة غير سدس..."(34)، بينما وليام شالر يذكر بأن المعركة كانت في صالح الانجليز منذ البداية لأنهم أكثر تنظيما وشجاعة وخبرة عكس الأتراك المتصفين بالجرأة والجهل والغرور (35)، وإني أعتقد في هذا الشأن أن هذا القنصل أبدى تحاملا وكرها للعثمانيين بسبب حكمه المسبق، ومن زاوية أخرى قلّص مدّة المعركة إلى تسع ساعات راحت الجزائر بعدها تطلب الصلح(36).

وإن كانت مدة المعركة في رأيي قد تفوق التسع ساعات، لأن بدايتها كانت قبل العصر، وكلمة قبل تعني طول المدة "بساعة أو ساعتين" إلى غاية منتصف الليل، وعلى هذا الأساس فلعلها تكون من الثانية زوالا إلى قرابة منتصف الليل إلاّ عشر دقائق.

ومما زاد تميز الرحّالة المحلي وانفراده بالموضوعية والدقة هو ذكره لعدد الكور التي سقطت على المدينة (إحدى وأربعين ألف كورة)(37)، دون أن يذكرها هذا القنصل وليام شالر ولو بمجرد إشارة، أمّا فيما يخص حرق جميع سفن أسطول الجزائر التي لم يتعرض لها القنصل شالر، فإن عبد الرحمن بن إدريس يؤكد هذه الحادثة ويذكر عدد السفن المحرقة وهي 14 سفينة كبار جدا، 13 أحرقت حتى لم يبقى لها أثر والرابعة عشر بقي شيء منها(38)، ومن هذه الواقعة أيضا تأكد لنا بأن الرحّالة المحلي كان

يتحرى الأمانة في نقل خبره والدقة في وصفه لما حدث، والتي اكتفى القنصل شالر فيها بقوله: "...الأسطول دمّر..."(39)، دون توضيح وتدقيق.

مما زاد في تأثير نفسية الرحالة المحلي عبد الرحمن بن إدريس هو حالة السكان في تلك الليلة والتي يصفها بعدة أوصاف تنمّ عن صدقه ونبل إحساسه فهي عنده ليلة شابت فيها الولدان، أسقطت فيها الحوامل، إشتدّ فيها البكاء والعويل، عظم فيها الكرب والهم والغم (40)،...وبالموازاة فهذا ما لم نجد له أثرا على الإطلاق عند الدبلوماسي شالر، بل بالعكس من ذلك تماما يصرح بأن تخريب وكر القرصنة لم يكن ضمن مخطط الحكومة البريطانية (41)، ولعل الصفة التي نعت بها مدينة الجزائر أظهرت عدائه الشديد ومقته الدفين لها.

7- شروط الصلح:

بحكم أن القنصل الأمريكي شالر كان قريبا من الداي "عمر باشا(42) "، فقد أكد على امتعاض الداي من شروط الصلح، إلاّ أنه ذكر ثلاثة شروط تخص هذا الصلح، فيها ما اختلف مع الرحّالة المحلي وفيها ما اتفق معه، وهذه الشروط عند شالر هي: (43)

أ- إطلاق سراح جميع العبيد المسيحيين.

ب- إعادة مبلغ 350.000 دولار كان ملك نابولي وسردانيا قد دفعاه فدية لرعاياهم الذين أطلق سراحهم في شهر أفريل الماضي.

ت- تنازل الإيالة عن استرقاق رعايا الدول المسيحية في المستقبل، غير أن نظيره عبد الرحمن بن إدريس يحدد عدد الأسرى بـ 1332 أسير، ويذكر مبلغ الفداء بعدد الأسرى (1100 أسير في شهر أفريل الماضي)، كل أسير بألف ريال (دورو الكبير)، والشرط الثالث الذي يذكره هذا الشيخ التنلاني هو أن يطلق صاحب الجزائر للإنجليز وهران وعنابة يكيلون منها الزرع، ولا يدخل الأتراك بين النصارى وأرباب الزرع.(44)

ومن هذا فمحور الاتفاق بين الرحالة المحلي والقنصل الأمريكي هو إطلاق سراح الأسرى وإرجاع مبلغ الفداء، ونقطة الاختلاف بينهما هي في الشرط الثالث الذي لم نجد له ذكرا في نص المعاهدة، غير أنّ السؤال الذي يطرح نفسه، ما الداعي الذي جعل الرحالة المحلي يذكر هذا الشرط، وما السرّ في سكوت القنصل الأمريكي عنه؟ والجواب هو أنه من المرجح أن يكون هذا شرطا سريا، إذا ما علمنا أن إنجلترا كانت دائما المنافس الأول والغريم اللدود لفرنسا، هذه الأخيرة التي استأثرت بتجارة الحبوب خصوصا في الناحية الشرقية ببايلك قسنطينة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد دلنا القنصل الأمريكي شالر ببعض قرارات مؤتمر فينا (1815) والتي تقضي بتحريم استرقاق رعايا الدول المسيحية، وإجبار الجزائر على تطبيق ذلك.

8- عقد الصلح:

اتفق كل من الرحالة المحلي والقنصل الأجنبي على أن الصلح وقع والجزائر قبلت بكل الشروط، غير أنّ الرحّالة المحلي ينفرد بتحديد مدة هذا الصلح، بين خمس أشهر وسنة وخمس سنين، لكنه أكدّ أنّ القاضي المالكي في تلك الفترة هو الذي أخبره بوقوعه سنة، وعلى هذا الأساس فمصدر معلومات هذا الرحّالة المحلي في الغالب كانت من صديقه القاضي (سيدي الحسن بن سيدي الحاج مصطفى) (45)، حتى أنّ المتتبع لذكر معلومات هذا الرّحالة يقف على عبارات عدة تدّل على تدوين ما قيل له عن ثقة أو عكس ذلك، إذ يقول: "...ما بلغني تحقيق ذلك عن ثقة..."(46)، في حين القنصل الأمريكي شالر يضيف في هذا الشأن أنّ هولندا عقدت مع الجزائر شروط صلح هي نفسها مع انجلترا بقيادة البارون فاندر كابيلان، ويصف أيضا فرح الانجليز بهذا الانتصار، وتوزيعهم للنياشين وزيادتهم لمعاشات وأجور رجال بحريتهم...(47)، لكن من أين للقنصل شالر بهذه الأخبار؟ وعلى غالب الظن أنّ أنباء انتصار الانجليز على الجزائريين كانت متداولة، ولعلّ من بين أهم المصادر التي استقى منها شالر معلوماته هي من موظفي قنصلية بريطانيا في الجزائر حينها، ومن المؤكد أنها معلومات صحيحة دلت على سعادة الانجليز بهذا الانجاز دولة وشعبا.

أمّا في ما يخص خروج سفن الأسطول من مرسى الجزائر وانتظار وفود الأسرى، فقد أوردها الرحّالة المحلي وزاد على هذا تأكيد أخذهم لمبلغ الفداء، وهذا ما لم يطلعن عليه القنصل الأمريكي شالر إطلاقا. وأني أرى موضوعية الرحالة المحلي وتتبعه للحدث بدقة أكثر من نظيره القنصل الأجنبي وليام شالر.

9- نتائج المعركة:

إنّ ما يذكره الرحّالة المحلي عن خراب مدينة الجزائر دلّ على أنه أكثر دقة وتوضيحا من القنصل الأجنبي وليام شالر، فهو يقدم الواقعة بأرقامها(48)، إذ يقول في بعض منها: (...500 دار خربت، برج الفنار خرب، وفاة 341 رجلا من المسلمين، 47 أكلهم البارود والكور، مات من النصارى 300 رامي...وفيما يخص إعادة بناء ما تهدم وترميم المنشآت فهو يصف هذه العملية وصفا ينّم على أنه عاش الحدث إذ يقول: "...يحمل الحطب الأخضر لطبخ الجير 500 جمل، جميع القبائل التي حول الجزائر يعطون ثلاثة أيام، وضع ألف بغلة لحمل الحجر والجير، 70 معلما للبناء، 1400 خديم، ولكل خديم 7 مزنات، وللمعلم 12 مزنات، وأول عمل قاموا به هو إصلاح سور المرسى، والاهتمام بإعادة بناء المسجد الكبير المنسوب للمالكية وهذا ما لم يصفه بوضوح شالر بتاتا.

دون مبالغة ولا تحيز، فقد أظهر " عبد الرحمن بن إدريس" التنلاني التواتي على أنّه ناقل للخبر من الصنف العالي، بذكره المنشآت المتضررة بأمكنتها وسرده للواقعة بتفاصيلها مع تأكيده على مصدر الخبر، بعضه مشاهدة وبعضه الآخر من الثقاة وعلى رأسهم شيخ القرّاء "سيدي عبد السلام الجبلي المغربي"(49)، وكذا القاضي المالكي السالف الذكر. وما زاد يقيني الكبير بصدق معلوماته ودقته فيها هو ذكره لتحطم روضة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالإضافة إلى هدم قبة مسجد الحنفية الذي عند سوق الحوت وقال:"...حسبت فيه أربعة عشر فرمة..."(50)، وهذا إنّ دلّ على شيء فإنما يدلّ على وقوفه على آثار الحملة وتأثره بها وبمخلّفاتها.

رغم بقاء الرحّالة المحلي في مدينة الجزائر 37 يوما فقط، إلاّ أنه أثبت خبر سير الحادثة ونتائجها بدقة متناهية فاقت وصف وليام شالر الذي لم يتأثر للحدث كثيرا إذ

ما قورن برحالتنا المحلي، وفي اعتقادي هذا راجع إلى عامل الروح الوطنية العالية وكذا الصدق والأمانة في نقل الخبر اللتان اتصفا بهما عبد الرحمن بن إدريس.

وللحقيقة التاريخية يسرد عبد الرحمن بن إدريس كيفية موت قايد (51)، المرسى على يد الباشا عمر، ثم يصف حالة الخوف والرعب والهم والغم التي كان عليها سكان المدينة وقتها، وتوقف البيع والشراء فيها وانعدام الأمن في جميع الطرق المؤدية لها وشيوع خبر خرابها واستيلاء النصارى عليها، غير أنّ الله تعالى هو الذي حال بينهم وبين أخذهم المدينة على حد ذكره، كما يزودنا ببعض المعارف التي تخص دفاع المدينة ناحية البحر بواسطة المدافع المركبة على سور المرسى، وعلى برج الفنار، وعلى ساحل البحر جهة عين الرباط، واستعمال الأسطول الانجليزي لخديعة ومكيدة حراس المدينة حتى وصوله إلى سور المرسى(52).

وللتأكيد على أنّ الرحّالة المحلي كان حاضرا في مواقع عدة تخص حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816، هو ذكره بأنّ دار الباشا عمر ضربت بكورة وزنها 151 رطلا، أي 75.5 كلغ تقريبا، وقد حضر هو وزن هذه الكورة ويذكر تأثيرها بوفاة 11 نفسا من حشم الباشا، وتخريب مقدار دويرة من داره (قصر الداي)(53).

بقدر ما اختلف الرحّالة المحلي عن نظيره القنصل الأجنبي في عناصر مهمة تخص نتائج المعركة، والتي تبين من خلالها، أنّ عبد الرحمن بن إدريس ملاحظا دقيقا وواصفا أمينا بقدر ما اتفق معه على أنّه لو استأنف قصف المدينة لجلى عنها الأتراك ولأصبح من الممكن احتلالها، وهنا نسجل تناقض وليام شالر مع نفسه بخصوص نوع القوة الذي ليس من شأنه احتلال المدينة كما قال في البداية.

لقد اشترك كل من الرحالة المحلي والقنصل الأمريكي في ذكر عمليات الترميم وإعادة بناء المنشآت المتضررة التي عقبت نهاية المعركة، لكن ينفرد الرحالة المحلي بذكر التفاصيل أكثر من القنصل الأجنبي شالر، والذي يوجه أصابع الاتهام لفرنسا بنشر وإذاعة خبر الحملة، غير أنّ الرحالة المحلي يزودنا بذكر مكاتبة كل من مللك المغرب (مولاي سليمان) (54) ويهود مدينة ليفورنة "Levourne" لداي الجزائر يعلمانه بشأن

حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر (55)، وعلى غالب الظن أن كلا الخبرين يكون صحيحين.

10- وصف عمر الباشا:

لقد قدم القنصل الأمريكي شالر وصفا دقيقا (56)، لشخص داي الجزائر حينها (عمر باشا) ينّم عن ملازمته له وكثرة ملاقاته، كما قدم نبذة عن حياته وكيفية وصوله إلى الجزائر، ومن ثم إلى سدّة الحكم فيها، وهو في هذا يفوق الرحالة المحلي الذي اكتفى بتقديم شجاعته وقت المعركة بالذات، وهو يستقبل الكور بصدره ووجهه مناديا: ياعباد الله، الجنة مفتوحة لكم أبوابها(57)...،وإني أعتقد أنّ ملازمة القنصل شالر لداي الجزائر في عدة مرات ولقائه به في مناسبات كثيرة بحكم منصبه كقنصل ورجل دبلوماسي جعله يقدم على وصفه وصفا يتضح من خلاله معرفته الدقيقة به، مع استعانته بمصادر أخرى ساعدته على تتبع مراحل الحياة لهذا الشخص، وفي نفس هذا الإطار نقول أنه لو كان الرحالة المحلي قريبا من داي الجزائر، أو أتيحت له الفرصة لملاقاته مرات عدة لكان وصفه له أدق من وصف شالر، وإن كان هذا التخمين لا يغير من حقيقة الأمر شيء، ولقد برهن القنصل الأمريكي على أنه ملاحظ متميز في شخص داي الجزائر وجامع لأخباره وحياته أكثر من الرحالة المحلي، الذي اكتفى بالثناء عليه، ولهذا مبرراته المنطقية والواقعية، غير أنّ دقة وموضوعية الرحّالة المحلي ظهرت جلية في عدة مصادر ومراجع وإحالات(58).

III- استنتاجات:

ومن خلال ما تقدم عن الشخصين الرحّالة المحلي والقنصل الأجنبي في كتابتهما عن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 نخلص إلى النتائج التالية:

- لقد اتضح أنّ الرحّالة المحلي " عبد الرحمن بن إدريس" كان صادقا في سرد أخبار الحملة من حيث أسبابها، سيرها ونتائجها بالتفصيل والتوضيح دون اهتمام القنصل الأجنبي بسرد التفاصيل.

- لقد اتفقا كل من الرحّالة المحلي والقنصل الأمريكي في نقاط منها:

أ- ذكر مكاتبة الإنجليز لداي الجزائر وعدم رد هذا الأخير عليهم.

ب- دخول سفن الأسطول لميناء الجزائر دون تعرضها لأذى.

جـ- في بعض شروط الصلح، بعد انتصار الإنجليز (خصوصا الشرط الأول والثاني).

د- في بعض آثار ونتائج المعركة (الحملة)...

- ولقد اختلفا في أمور عدة ولعلّ من أهمها:

أ- قضية تبديل الأعلام السوداء بالبيضاء التي يقرّ بها الرحالة المحلي وينكرها القنصل الأجنبي.

ب- نزول سفن الإنجليز ميناء الجزائر مع وصفها وصفا دقيقا من طرف الرحالة المحلي.

جـ- الاختلاف بينهما في ذكر الشرط الثالث في توقيع الصلح.

د- في ذكر بعض آثار الحملة وصداها المحلي والأوربي.

هـ- في وصف عمر باشا داي الجزائر، والذي أعطى ترجمة حياته وسيرته ووصفه هو القنصل الأمريكي شالر عكس الرحالة المحلي...

خلاصة:

- كلا المصدرين مهمين في حديثهما عن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816م ، فيهما من الاتفاق كما فيهما من الاختلاف في ذكر تفاصيل الحملة و آثارها و بعض نتائجها .

- لقد تحكّمت عوامل عديدة و ظروف كثيرة في تدوين أخبارالحملة عند كل من الرحالة المحلي عبد الرحمن بن إدريس التنلاني و كذا القنصل الأمريكي وليام شالر.

- كتابة التقارير الرسمية و الرحلات الدبلوماسية تختلف في صياغتها عن كتابة الرحلات الخاصة و العادية ، و لذلك ظهر هذا الفرق بين كل من وليام شالر كقنصل و عبد الرحمن بن إدريس كرحالة .

- الحقيقة الواجب ذكرها في هذا الشأن أنّ بعض الكتاب و الرحالة العرب لا تنقصهم الموضوعية و الدقة في نقل الأخبار من أمثال عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي.

- وجدنا ما ذكره كل من الرحالة المحلي والقنصل الأجنبي فيه من الفائدة التاريخية ما يهم الباحثين والمؤرخين عن حملة اللورد إكسموث على مدينة الجزائر.

هوامش المقال:

(1)- مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 115.

(2)- دار الجهاد: من بين أهم التسميات التي أطلقها العرب والمسلمون عموما على مدينة الجزائر إبان العهد العثماني.

(3)- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 321.

(4)- المحروسة: تعتبر هذه التسمية لصيقة بمدينة الجزائر في العهد العثماني، خصوصا من طرف المؤرخين والكتاب العرب والمسلمين (أحمد أبوراس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج2، تح، م.و.أ.إ.ث. وهران، 2008، ص 25.

(5)- اللورد إكسموث: "Lord Exmouth" إسمه إدوارد بيلاّو "Edward Pellew". ولد يوم 19 أفريل من سنة 1757 بإنجلترا، توفي عام 1833م عن عمر يناهز 76 سنة، قام بحملة على مدينة الجزائر برفقة الهولندي الأميرال فان كبيلان Van Cappelin في نهاية أوت 1816.

انظر: وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980، ص 160.

(6)- توات: إقليم يقع جنوب غرب الصحراء الجزائرية، ويقع ضمن امتداد أدرار، تيميمون، عين صالح، الأولى (أدرار) كانت تعرف باسم منطقة توات، والثانية (تيميمون) باسم منطقة القورارة والثالثة (عين صالح) باسم منطقة تيديكلت.

انظر: فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 1.

(7)- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي، رحلته ضمن كتاب ثلاث رحلات مغاربية ويليه مجموع رحلات جزائرية، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، طبعة خاصة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص ص 223-224.

- وعبد الرحمن بن إدريس التنلاني التواتي، الرحلة، تحقيق حساني مختار، حوليات جامعة الجزائر، العدد 16، ج1، 2006، ص 201.

(8)- نفسه ، ص 202.

(9)- "سوى": واحة في غربي الفيوم دون فزان السودان، وهي آخر جنوب مصر.

انظر: إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص ص 128-129.

(10)- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، المصدر السابق، تحقيق حساني مختار، ص 201.

ونفس المؤلف، المصدر السابق، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، ص 226.

(11)- نفسه ، ص 226.

(12)- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 281.

(13)- نفسه ،ص281.

(14)- احميدة عميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، مذكرات تيدنا أنموذجا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص ص 25-26.

(15)- للجاسوس بوتان كتاب مهم انظر:

-Boutin (y), Reconnaissance de Villes, forts et batteries d'Alger, Pub, par G.Esquer, Lib.Ancienne, H. Champion, Paris, 1927.

(16)- أحميدة عميراوي، المرجع السابق، ص 25.

(17)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 244.

(18)- وليام شالر، المصدر نفسه، ص 156.

(19)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 257.

(20)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 158.

(21)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 245.

(22)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 169.

(23)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 256.

(24)- المصدر نفسه، ص 257.

(25)- نفسه، ص 246.

(26)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 156.

(27)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 246.

(28)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 156.

(29)- نفسه، ص 156.

(30)- نفسه، ص 158.

(31)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 247.

(32)- نفسه، ص ص 253-254.

(33)- نفسه، ص 247.

(34)- نفسه، ص 247.

(35)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 157.

(36)- نفسه، ص 157.

(37)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 247.

(38)- نفسه، ص 248.

(39)- وليام شالر، المصدر السابق.

(40)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 254.

(41)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 158.

(42)- الداي عمر باشا:حكم الجزائرمن 7 أفريل 1815م إلى 1817م ، لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة لكن كان يتمتع بصفات الحاكم ، كان في الأربعين من عمره ، قوي البنية موفور الحيوية ، إتّسمت أعماله بالعدل والحلم.انظر: أبو العيد دودو،الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830 – 1855م، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1989م، ص 64 .

(43)- وليام شالر، المصدر السابق، ص 157 .

(44)- عبد الرحمن بن إدريس المصدرالسابق، ص 249.

(45)- سيدي الحسن بن سيدي الحاج مصطفى: لقد عاصر هذا القاضي العديد من العلماء ومنهم محمد بن القاضي و الشيخ محمد بن المصطفى وسيدي السعيد بن محمد ويبدوأن المدة التي قضاها في القضاء كانت قصيرة انظر: نورالدين عبد القادر صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965، ص ص 194- 195 .

(46)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 250.

(47)- وليام شالر، المصدر السابق ص، ص 157-158.

(48)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص ص 253-254.

(49)- سيدي عبد السلام الجبلي المغربي : يبدو من خلال التسمية أنه من المغرب، وقد كان من قراء صحيح البخاري بالجامع الكبير في مدينة الجزائر والتي كانت عادة دأب عليها علماء المدينة طيلة الفترة العثمانية انظر: عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، تقديم وتحقيق وتعليق ابوالقاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر، 1983، ص ص216-218.

(50)- عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 253.

(51)-نفسه، ص ص253-254.

(52)- نفسه، ص254.

(53)- نفسه، ص 255.

(54)- مولاي سليمان : هو أبوالربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف، كان سلطانا مغربيا من سلالة العلويين وهو ابن السلطان محمد الثالث، حكم ما بين 1797 - 1822 وقدم مساعدة للجزائر بعد حملة اللورد اكسموث تمثلت في مركبين من نوع كربيط وبلاندرة وأموالا انظر: أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج احمد الشريف نقيب أشراف الجزائر1168-1246 هـ/1754-1830

م، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 127.

(55)-عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص255.

(56)-وليام شالر، المصدر السابق، ص ص 160-162.

(57)-عبد الرحمن بن إدريس، المصدر السابق، ص 256.

(58)- شونبيرغ ، نظرات على الاحتلال الأخير والتاريخ الحديث للجزائر، ترجمة أبو العيد دودو ضمن كتاب الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص ص 65-66.

انظر: عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، منشورات مركز الدراسات والبحوث، تونس ،1985، ص ص 144-145 و عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 318.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

1- ابن إدريس عبد الرحمن ، الرحلة (ضمن كتاب: ثلاث رحلات مغاربية ويليه مجموع رحلات جزائرية)، تحقيق مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، طبعة خاصة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

2- ابن إدريس عبد الرحمن ، الرحلة، تحقيق مختار حساني، حوليات جامعة الجزائر، ج1، العدد 16، 2006.

3- ابن حمادوش عبد الرزاق ، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال تقديم وتحقيق وتعليق ابوالقاسم سعد الله ،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص ص216-218.

4-أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج2، تحقيق المركز الوطني في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، 2000.

5- التميمي عبد الجليل ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، منشورات الدراسات والبحوث، تونس،1985.

6- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994 .

7-الزهار أحمد الشريف، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر1168-1246/1754-1830، تحقيق أحمد توفيق المدني الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، 1974.

8- العربي إسماعيل ، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

9- بلحميسي مولاي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 .

10- سبنسر وليم ، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980 .

10- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 .

11- شالر وليام ، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

12- شونبيرغ، نظرات على الاحتلال الأخير والتاريخ الحديث للجزائر، ترجمة أبو العيد دودو (ضمن كتاب الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

13- عميراوي احميدة ، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني، مذكرات تيدنا أنموذجا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003 .

14- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.

15- نورالدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، نشر كلية الآداب الجزائرية، 1965 .

16- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.

17-Boutin (y), Reconnaissance de Villes, forts et batteries d'Alger, Pub, par G.Esquer, Lib.Ancienne, H. Champion, Paris, 1927.

18-Encyclopédie des gens du monde, Paris, 1838 (T10).